# سيولة الوعي المعاصر: قراءة في ظاهرة «فلسفة المزاج» العربية

خلال تصفحي إحدى منصات التدوين الرقمي، استوقفني تعبير لم يمر عليّ من قبل: «فيلسوف المزاج»، أو ما يُشار إليه أحياناً بالإنجليزية بعبارة Philosopher Vibe. بدا المصطلح غريباً للوهلة الأولى، لكنه سرعان ما فتح نافذة على موجة فكرية هادئة أخذت تتسع في الفضاء العربي والخليجي؛ موجة يقدم فيها شبان وصنّاع محتوى تأملات تمزج بين الفلسفة اليومية والتحليل النفسي ولغة الاعتراف الشخصي، في محاولة لفهم قلق الإنسان المعاصر، ووحدته، وتشتته داخل حياة رقمية لا تكف عن التسارع.

وما يجعل المصطلح لافتاً، أن كلمة vibe لم تعد مجرد استعارة لغوية عابرة، بل أصبحت جزءاً من القاموس المتداول لجيل يعيش في فضاء تتداخل فيه الفلسفة الخفيفة مع علم النفس الشعبي، وتختلط فيه المعرفة بالانطباع، والتحليل بالشعور. فهي تشير إلى الإحساس العام الذي يحيط بالإنسان: مزيج من الجو النفسي، والطاقة الداخلية، والمزاج اللحظي الذي يُلتقط أكثر مما يُعرّف. ومع انتقالها إلى العربية، لم تعد الكلمة دخيلة تماماً بقدر ما أصبحت وصفاً لظاهرة جديدة: شخص يلتقط هذا الإحساس العام ويحوّله إلى تأملات يومية تمنح المتابع شعوراً بأنه فهم نفسه أكثر، حتى لو لم يتغير شيء فعلياً في حياته.

ما «فلسفة المزاج»؟

يمكن القول إن «فلسفة المزاج» هي نمط من التفكير القريب من الحياة اليومية، لا يسعى إلى بناء أنظمة فلسفية معقدة، ولا يدّعي امتلاك نظرية كبرى في الوجود، بل يحاول فهم المشاعر والعلاقات والقلق الإنساني داخل عالم سريع ومربك. «المزاج» هنا ليس نزوة عابرة، بل حالة نفسية وروحية يحاول الإنسان أن يصغي إليها، ويتعايش معها، ويمنحها لغة قابلة للفهم.

تعود جذور هذه الموجة إلى تحولات ثقافية أوسع، حين خرجت الأسئلة الوجودية من الكتب الثقيلة إلى المجال اليومي، ثم أعادت البيئة الرقمية إنتاجها بصورة أخف وأكثر قرباً من التجربة الفردية. لقد تحوّل السؤال من: «ما الحقيقة؟» إلى: «كيف أعيش بخفة أكبر؟»، ومن: «كيف أجد المعنى في العبث؟» إلى: «كيف أدير مزاجي وسط هذا الضجيج؟».

هذا التحول لا يعني بالضرورة تراجع الفلسفة، لكنه يكشف تغير وظيفتها في المخيال الرقمي. فقد صارت الفلسفة، لدى شريحة واسعة من المتلقين، أقرب إلى أداة لتنظيم المشاعر وإدارة القلق منها إلى مشروع معرفي صارم. هنا لا يقرأ المتابع الفكرة كي يختبر صحتها فقط، بل كي يرى إن كانت تمنحه لحظة صفاء، أو عبارة قابلة للحفظ، أو معنى مؤقتاً يساعده على عبور يومه.

نماذج عربية من «فلاسفة المزاج»

لا يقتصر هذا التيار على أسماء محددة، ولا يصح اختزاله في شخص أو منصة بعينها، لكنه يظهر بوضوح في نماذج خليجية وعربية متفرقة. فقد قدّم أحمد الغامدي في بداياته خطاباً تأملياً يمزج بين الوجودية واللغة اليومية، قبل أن يعيد لاحقاً النظر في كثير من أطروحاته، وهو ما يعكس طبيعة هذا النوع من الخطابات التي تتبدل بتبدل المزاج الرقمي والسياق الشخصي.

أما نشرة «فكرة» البريدية لسليمان السويد، فتقدم نموذجاً آخر لفكرة فلسفية أسبوعية بلغة قريبة وهادئة، تميل إلى الترميم النفسي وإدارة التوتر دون صدمة أو تفكيك حاد. وفي اتجاه قريب، يأتي بودكاست «بسط Psychology» مع راكان بوصفه نموذجاً يمزج بين علم النفس الإكلينيكي والتأمل اليومي، مستعيناً بأمثلة من الحياة المعاصرة في مدن الخليج الكبرى، حيث تتجاور الرفاهية المادية مع هشاشة القلق الداخلي.

هذه النماذج، رغم اختلافها في الأسلوب والمرجعية، تشترك في سمة مركزية: جعل الفلسفة قابلة للاستهلاك اليومي، وإعادة تقديمها بوصفها جزءاً من الروتين النفسي لا من المشروع الفكري. فالاستماع إلى حلقة بودكاست، أو قراءة نشرة بريدية، أو مشاهدة مقطع قصير، لم يعد فعلاً معرفياً صرفاً، بل طقساً صغيراً من طقوس العناية بالذات.

المثقف الحميم وسوق الطمأنينة

يكمن سر انتشار هذا الخطاب في شيء يتجاوز بساطة اللغة. فـ«فيلسوف المزاج» لا يظهر غالباً بوصفه مفكراً متعالياً، ولا يتحدث من برج أكاديمي، بل يتقدم إلى جمهوره كإنسان مرتبك يشبههم. إنه لا يقول: «اتبعوني لأنني أملك الحقيقة»، بل يهمس: «أنا تائه مثلكم، لكنني أحاول أن أفهم».

هكذا وُلد نموذج يمكن تسميته «المثقف الحميم»؛ ذلك الشخص الذي لا يستمد تأثيره من سلطته المعرفية

وحدها، بل من قدرته على بناء شعور بالقرب والصدق والانكشاف. المتابع لا يشعر أنه يتلقى درساً من مفكر رسمي، بل يظن أنه يصغي إلى صديق ذكي، أو أخ أكبر، أو شخص مرّ بالتجربة نفسها وخرج منها بعبارة مريحة.

لكن هذه الحميمية، بقدر ما تبدو صادقة، أصبحت جزءاً من اقتصاد الانتباه. فالبودكاستات الهادئة، والنشرات البريدية، والاشتراكات في المحتوى التأملي، لا تبيع المعرفة وحدها، بل تبيع شعوراً بالرفقة والطمأنينة. صار القلق مادة قابلة لإعادة التدوير، وصارت الراحة النفسية منتجاً رقمياً يتجدد كل أسبوع أو كل حلقة أو كل منشور.

ليست المشكلة هنا في أن يبحث الإنسان عن عزاء عابر، ولا في أن تتحول الفلسفة إلى لغة أقرب للناس. المشكلة تبدأ حين يصبح العزاء بديلاً عن الفهم، وحين تتحول الطمأنينة إلى سلعة متكررة لا تحرر الإنسان من قلقه بقدر ما تجعله محتاجاً دائماً إلى جرعة جديدة من السكينة الرقمية.

بين الترميم النفسي والتفكيك الراديكالي

مع اتساع هذه الموجة، يمكن تمييز اتجاهين رئيسيين داخلها. الأول هو اتجاه الترميم النفسي والاجتماعي، وهو الأكثر انتشاراً. يمزج هذا الاتجاه بين علم النفس، وتطوير الذات، وبعض القيم الروحية العامة، محاولاً مداواة القلق دون مساس عميق بالثوابت أو البنى الاجتماعية. إنه خطاب يقول للإنسان: افهم جرحك، رتّب يومك، خفف توقعاتك، وتصالح مع ذاتك.

أما الاتجاه الثاني فهو اتجاه التفكيك الراديكالي، وهو أقل انتشاراً لكنه أعلى صوتاً. يستخدم هذا الاتجاه الصدمة والسخرية لتشريح العادات والتراث، وأحياناً يتجاوز النقد الاجتماعي المشروع إلى التشكيك في المرجعيات الدينية والقيمية تحت شعار «الصدق مع الذات». هنا تبدأ المتاهة: متى يكون النقد تحريراً للعقل، ومتى يتحول إلى تفكيك مدمر لا يترك للإنسان أرضاً يقف عليها؟

إن غياب الضوابط المعرفية في الفضاء الرقمي يجعل من السهل استخدام أدوات التفكيك دون مسؤولية. فحين يصبح المزاج الفردي معياراً للحقيقة، تصبح السخرية بديلاً عن التفكير، ويصبح الإحساس اللحظي حاكماً على ما هو أخلاقي ومعرفي وروحي.

أين تكمن الإشكالية؟

يداً عن الهاجس الأخلاقي المباشر، تبدو الإشكالية الأولى في اختزال الفلسفة إلى مزاج. فعندما تتحول الفلسفة إلى اقتباسات قصيرة وتأملات سريعة، يصبح الشعور أحياناً أعلى من الحقيقة، ويصير معيار الصواب: «هل يريحني هذا الآن؟» لا: «هل هذا حق؟». وهنا تفقد الفكرة قدرتها على مقاومة النفس، وتتحول إلى مرآة ناعمة تعكس ما نريد سماعه.

أما الإشكالية الثانية فهي تسييل القيم. تبدأ بعض الخطابات من نقد اجتماعي مشروع، وهو أمر صحي وضروري، لكنها قد تنزلق تدريجياً نحو جعل كل قيمة قابلة للتفاوض اللحظي باسم الراحة النفسية أو الصدق مع الذات. وحين تغيب الحدود بين مراجعة الموروث وهدم المعنى، يصبح الإنسان حراً ظاهرياً، لكنه أكثر هشاشة في العمق.

وتتعلق الإشكالية الثالثة بالتبسيط المفرط. فتبسيط الفلسفة أو علم النفس ليس عيباً في ذاته، بل قد يكون جسراً مهماً إلى المعرفة. غير أن الخطر يظهر حين يصبح التبسيط بديلاً عن التعلم، وحين تُختزل المعاناة النفسية في نصيحة قصيرة أو عبارة جميلة. عندها يتكوّن وعي سريع التأثر، لكنه قليل القدرة على الصمود أمام الأزمات الحقيقية.

نحو بساطة لا تلغي العمق

ربما لا نحتاج إلى رفض «فلسفة المزاج» بقدر ما نحتاج إلى تهذيبها. فمن غير العادل أن نطالب جيلاً يعيش تحت ضغط السرعة والقلق أن يعود كله إلى الكتب الثقيلة والأنظمة الفكرية الصارمة. كما أنه ليس من الحكمة أن نسخر من حاجته إلى لغة قريبة تساعده على تسمية ما يشعر به. لكن المطلوب هو ألا تتحول هذه اللغة القريبة إلى نهاية الطريق.

نحتاج إلى مساحة ثالثة لا تنتمي إلى الوعظ الجاف ولا إلى المزاج العابر؛ مساحة تسمح للإنسان بأن يفكر بعمق دون أن يفقد بساطته، وأن يواجه قلقه دون أن يتحول إلى مستهلك دائم للسكينة الرقمية. فالطمأنينة الحقيقية لا تأتي من تكرار العبارات المريحة فقط، بل من بناء معنى قادر على الصمود حين لا تكون الحياة مريحة.

خاتمة

في النهاية، تبدو «فلسفة المزاج» محاولة لفهم الذات أكثر مما هي مشروع لتغيير العالم. إنها

استجابة بشرية طبيعية لزمن سريع ومربك، لكنها قد تتحول بسهولة إلى طقوس خفيفة تمنح راحة مؤقتة دون أن تفتح باباً حقيقياً للمعرفة. وبين محتوى يرمم الروح وآخر يفتت الثوابت، يبقى الإنسان معلقاً بين حاجته إلى الطمأنينة ورغبته في الفهم.

ولعل التحدي اليوم هو أن نعيد وصل البساطة بالعمق، وأن نجعل الفلسفة قريبة من الإنسان دون أن نحولها إلى مجرد مسكن وجداني.

ويبقى السؤال الذي لا يملك أحد جواباً جاهزاً له:

هل نحن نبحث عن معنى يغيّر حياتنا، أم عن مزاج يخففها قليلاً؟